حوار الحضارات: الاسلامية، والمسيحية، واليهودية ومكانة اللغة العربية

أ. د. علي رضا محمدرضايي

خلاصة المقال:

تعد إقامة الدولة الاسلامية وسيادتها لثمانية قرون من أهم واحدث ما وقع على صفحة التاريخ للايحاء بامكانية تحقق الحياة الاخوية في ظل الذكاء العاطفي.إذ دخل العرب شمال الافريقيا وجنوبي الاروبا. انضمّ سكان شبه جزيرة ايبريا الى قادة العرب.فلم يلبث أن عم الاسلام أنحاء الجزيرة المترامية الاطراف دخل الناس في الدين افواجا فبنوا حضارة سامية زاهرة واقاموا دولة اسلامية استمرّت ثمانية قرون سادت فيها حياة مشتركة أخوية بين المسلمين والمسيحين واليهود.اصبح التآخي رمز الازدهار السريع والرائع للحضارة الاسلامية الاندلسية، كما كان الذكاء العاطفي رمزا للتآخي والتعايش السلمي.

تأتي أهمية هذا البحث من أنّه يذكر بأن الاندلس كانت النموذج الوحيد والبارز المتلألئ على صفحة التأريخ ورمز الوحدة العالمية لتحيي بذلك أجواء السلم التي كانت سائدة في تلك الحقبة في اذهان اليوم وفي بال كل من يدعي الذود عن حياض السلم باعتبار الاندلس يتيمة السلم والمودة العالمية، لتبيين ما حدث بعد الفتح في الأندلس من الاتحاد وظهور الأخلاق وتطبيقها ورعاية حقوق الإنسان والمدنية والتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية والأدبية و... لا يمكن أن يقارن بما كان قبل الفتح. كما تأتي أهمية البحث في أنه يقدم نموذجا تأريخيا لحوار الحضارات والتعايش فيما بينها ويكتشف الستار عن الامكانيات الفكرية البشرية التي يمكن استخدامها لاجل حياة أفضل.

فهذه المقالة في ضوء المنهج التأريخي والوصفي تركز الضوء على جانب من دخول الاقوام العدة الى الاندلس حتى العصر الاسلامي وعلى جانب من التعايش الاجتماعي والثقافي والسياسي وطوابع التعايش بين العوالم الثلاثة: الاسلام،النصرانية واليهودية باستخدام الذكاء العاطفي فيركز البحث ايضا على الابعاد ومهارات الذكاء العاطفي الذي استخدمها المسلمون وعلى التطورات والتبادلات العلمية طوال ثمانية قرون حكم خلالها المسلمون الاندلس وعلى ما حدث من نهضة قومية إقليمية خارقة العادة وعلى ما قاموا به المسلمون من الخدمات الجديدة وما اتوه من الثقافة الجديدة ونقل العلوم ومظاهر الاجتماعية والثقافية كاللغات والالعاب كما يتحدث البحث عن مكانة اللغة العربية وسواها في ذلك التعايش وينتهي البحث بخاتمة تركز على أهم النتائج التي توصل إليها، والتوصيات التي ينصح بها.

الكلمات الرئيسة: الحوار، التعايش، التبادل الحضاري،اثر اللغة العربية.

مقدمة

سكن أسبانيا عنصران، هما: «سلت» و«إيبري» طوال قرون، ثم تحولاً شيئاً فشيئاً إلى عنصر واحد بالزواج. دخل هذه المنطقة على مرّ الزمن أقوام عدة: الفنيقيون هم الأوائل الذين بقوا إلى ألف ومائة قبل الميلاد ثم اليونان. لقد جاء كلاهما عبر الطرق البحرية كي يبرما حبل التجارة بين البلاد التي كانت تحيط البحر المتوسط. وردت بعدهم قبيلة «قرطاجنة»٤ من شمال أفريقيا لإقامة دائمة في أسبانيا، فقد حكموا قرنين قبل الميلاد وجعلوا مدينة قرطاجنة مركزاً تجارياً لمنطقة البحر المتوسط. ثم بلغ دور الروم منذ مائتي سنة قبل الميلاد حتى ٥٨٤ بعد الميلاد.

قيل إنهم بنوا اكثر من ثمانمائة مدينة جميلة وأشاعوا لغات ثلاثة: «الكاتالونية» «البرتغالية» «الأسبانية». كانت هذه الثلاثة، إلى جانب اللاتينية التي كان الناس ينطقون بها، تعتبر لهجات. ثم أغارت قبائل «الجرمان» المتوحشون على

هذه المنطقة فسيطرت منهم قبيلة «قوت» أو«فيزيقوت» الذين كانوا يعبدون الأصنام فتنصَّروا بامتزاجهم باللاتينيين وتعلموا لغتهم. ولكنهم لم يقدروا على تدبير أمور المجتمع والرعايا بل لم يتمكنوا من إطفاء نيران الفتن والعداوة بين أفراد أسرتهم.٥

ويروى، أنه حكم أسبانيا منهم ستة وثلاثين عاهلاً حتى دخول الإسلام سنة ٢٩ هـ. كان آخرهم «روذليق»٦ الذى قتله طارق بن زياد.

وتعتبر انتصارات المسلمين خلال ٩٢ حتى ٩٨ هـ. التي عبّر عنها بصواعق في سماء أسبانيا٧، طوراً جديداً من الفتوحات الإسلامية. كان الوليد بن عبدالملك، سادس الخلفاء الأمويين، يحكم من الشام على ما فتح الإسلام من البلدان. وكان موسى بن نصير، أحد أمرائه يتابع في القيروان سياسة توسيع الفتوحات الغربية بقيادة طارق بن زياد. ومن جانب آخر، كان العالم في تلك الحقبة يحترق في نار الجهل والأمية والتوحش والجور، بينما ذاع صيت الإسلام بالعلم والعمران والعدل والرحمة المحبة في كافة أرجاء العالم، العوامل التي أدّت إلى أن يقوم المسلمون بعد انتصاراتهم في شمال أفريقيا بعملية عبر المضيق الذى كان يربط البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى، فنزل طارق على صخرة سمّيت بجبل طارق ودخل بجيشه أرض أيبريا فانتصر بسرعة. كما قام موسى بن نصير بنصرته فور بلوغ الخبر. وقد ساهم في تحقيق هذا النصر العظيم رجال من دمشق وحمص، فلسطين، والأردن، والعراق، وأهل قنسرين، ومصر، والحجاز، وإيران.

أما الحادثة المرة التي ما زالت ولا تزال تؤذى المسلمين، فهي أن الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك، دعا موسى بن نصير وطارق إلى الشام مركز الخلافة. ولولم يفعل ذلك لنوّر الإسلام بمعطياته أوروبا أكثر وأسرع مما نعرفه اليوم. لكنّ الهجمات استمرت في الشمال للوصول إلى فرنسا، ولم تتوقف إلا بعد ١٤٢هـ.٨

وبعد انتصار بنى العباس في الشرق، هرب عبدالرحمن بن معاوية بن هشام الشهير ب«الداخل» إلى شمال أفريقيا ثم إلى الأندلس فأقام سنة ١٣٨ هـ الدولة الأمويةالاندلسية في مدينة «المكّب٩؛حيث بادر عبدالرحمن وخلفاؤه إلى توسيع سلطانهم وتمكنوا من إيقاف زحف الأمراء المسيحين في الشمال، ومن إطفاء نيران الفتن الأهلية.١٠

واكتفى الأمويون بالإمارة لمدة طويلة حتى اعتبر عبدالرحمن الثالث، ثامن الخلفاء الأمويين، نفسه خليفة الأندلس سنة ٣١٧ هـ١١. وتمكن من قهر السلاطين المسيحين: منهم ملوك «ليون» و«قسطلة» (كاستيل) و«نواره»، واستطاع أن يطرد المهاجمين الأفريقيين، ليستولى على البحر المتوسط بقواته البحرية. ومع أن الخلفاء حاولوا أن يحفظوا سلطانه بملوك الطوائف. حكموا بعد الأمويين حتى سنة ٨٩٧ هـ.

إذا اعتبرنا دخول طارق أرض إيبريا بداية الحكم الاسلاميفقد حكم المسلمون على الأندلس ثمانية قرون، وإذا اعتبرنا إقامة الدولة الأموية مبدأ الحكم، فإنهم دبروا الأمور سبعة قرون. طوال هذه الحقبة سادت حياة مشتركة أخوية بين المسلمين واليهود الاندلسية. وبناء على هذه المقدمة التاريخية تحاول هذه المقالة الموجزة معالجة موضوعين: الأول: طابع التعايش السلمي للعوالم الثلاثة ومكتسباته. والثاني: مكانة اللغة العربية وسواها في هذا التعايش:

طابع التعايش السلمى للعوالم الثلاثة ومكتسباته

ما حدث بعد الفتح في الأندلس من الاتحاد وظهور الأخلاق وتطبيقها ورعاية حقوق الإنسان والمدنية والتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية والأدبية و... لا يمكن أن يقارن بما كان قبل الفتح.

منذ بداية انتصار العرب في الأندلس، حدثت نهضة قومية إقليمية خارقة العادة؛ اختلط العرب، ببركة الإسلام، بسواهم من البربر المستعمرين والإقطاعيين المسيحيين الكبار الأرستقراطيين، وغيرهم من الفئات والطبقات الاجتماعية مشكلين خليطاً اجتماعياً متعدد الأعراق والثقافات، منسجماً في الوقت عينه؛ لان التواصل المؤثر يؤدي إلى توجيه النشاطات وتحسين البواعث والمشاركه الجماعية وإلى البلوغ إلى الاهداف.

وليست هذه المعاملة الحسنة للفاتحين الجدد، إلا استجابة لدعوة الإسلام إلى الرفق بالسكان الأصليين، ما دعا بعض العلماء الغربيين للاعتراف: بمعاملة المسلمين السكان الأصليين على نحومعاملتهم لأهل الشام ومصر، وفوّضوا اختيار اموالهم ومعابدهم وقوانينهم إليهم، وخيّروهم بين أن يعتنقوا الإسلام وبين أن البقاء على دينهم تحت إشراف أمرائهم وقضاتهم» ويعطوا جزية كان مقدارها ديناراً للأمراء ونصفه للآخرين. اذا اردنا ان نقلّل موانع التواصل لنوسّع

دائرة العلاقات الفردية والتواصل الجماعي ولنحسّن القيادة المؤثرة ووحركية المشاركة والإسهام الجماعية

وقد كانت تلك الشروط سهلة، بحيث استقبلها الناس جميعاً إلا أرباب الثروة١٢. فقد ألغي ما امتازت به الطبقات الممتازة والرواتب العالية التي كان يتمتع بها أرباب الأديان والأمراء والطبقة الأرستقراطية. فتحرر المستضعفون والمظلومون الغلمان والعبيد الذين كانوا يعاملون كالدواب، فاستخدموا الأراضي التي كانت تحت اشرافهم بكل حرّية. وألغيت الضرائب التي كانت تثقل كاهل الفنانين وأصحاب الحرف. فأدت إلى أن تنسج هناك الأقمشة الحريرية، وتدبغ الجلود وتستخرج المعادن ويستحصل السكر، ثم يحمل كل ذلك إلى أفريقيا والشرق.١٣

هكذا انعقدت عهود بين المسلمين والمستعربين والمستوطنين على أساس الاحترام المتبادل ورعاية الحقوق واحترمت المواثيق التي كانت معقودة بينهم قبل الفتح.فيبدوا أن المسلمين حاولوا ان يقلّلوا موانع التواصل لتوسّع دائرة العلاقات الفردية والتواصل الجماعي ولنحسّن القيادة المؤثرة وحركية المشاركة والإسهام الجماعية.

لم تجمّد الأراضي إلا أراضي الأمراء ورؤساء الكنائس والأساقفة الكبار الذين إما أنهم هربوا، وإما أنهم لم يسلّموا بل قاموا في وجه الدولة. فتمكن المسلمون من أن يساهموا في زراعة الأراضى جميعها خلال قرن. وبلغ التطور الاجتماعي حتى نهاية العصر الأموي الاندلسي درجة عالية يمكننا أن نعتبره عصر الهدوء والإستقرار. ومن المعروف أنه كان للمسلمين ما فاقوا به النصارى من الحضارة والأخلاق والعلوم والفنون، فأثرت الحضارة وآداب المدن الإسلامية وسننها اللطيفة في آداب الأسبان وسننهم ومدنيتهم؛ فتسربت إلى البلاطات المسيحية الصغيرة في شمال شبه الجزيرة الإيبرية فلقنتهم الرغبة في الرخاء والرفاهية؛ استقبل الناس في جميع الأقطار الشطرنج الذي نقله العالم الموسيقى «زرياب» إلى قرطبة، فلم يلبث أن راج في بلاط ملوك «ليون» باسم «أخدرش». وأيضاً رمى الرماح، والسباق كانتا من المباريات التي تقام في غرناطة حتى قصر الحمراء. فضلاً عن الحفلات والأعياد التي اختصت بالمسلمين؛ حيث كان هناك حفلان فارسيان؛ هما «النيروز» في أول الربيع و«المهرجان» في بداية الخريف.

وقد بقي العرب الأندلسيون على طابعهم الاندلسي وحفظ المستعربون صفاتهم العربية عن طريق احترامهم لدينهم. فهذا التعايش الاجتماعى الذي يعدّ من الطوابع الساطعة لتأريخ الأندلس تحقق في فترة كانت النزاعات والصراعات من ظواهرها البارزة. كانت فرنسا تتألم من السلب والنهب والسفك، ولم تكن لإنجلترا مكانة وسمعة، كانت تدار حيناً تحت انتداب الروم وحيناً كان يهاجمها أقوام الجرمن حتى اغار عليها طائفة من قراصنة البحر مسماة بـ«آنجلوسكسون» ففتحوا الجزيرة وسموها إنجلترا في حين لم يكن سائر أنحاء أوروبا أحسن حالاً منهما. الثورة الأرستقراطية التي حدثت في القرنين الثامن والتاسع أدت في الإسلام إلى ظهور مجتمع يهودي جديد كلّ الجدّة، اختلف اختلافاً كاملاً عما كانت عليه أوروبا المسيحية في القرون الوسطى ويذعن الكتاب في الجامعة العبرية في القدس بأن الحياة في هذا العصر في الأقاليم الاسلامية كانت أسهل من سائر أنحاء العالمولم ير اليهود قبل ذلك في البلاطات المسيحية أيّ سكون وهدوء، بل تحملوا أشد الضغوط والتعذيب بينما كانوا في الممالك الاسلامية في سلم وهدوء بال.١٤ كان المسلمون أحسن وألطف وألين مما كان الفاتحون قبلهم١٥؛ لأنهم قبل الفتح عندما اعتنق كثير من الناس في أسبانيا مذهب الروم الكاثوليكي بدأ المسيحيون بتعذيب اليهود لكنهم بلغوا بعد الفتح الاسلامي الهدوء، استقبل اليهود الفاتحين، وساهموهم في الفتح. وليس من الغريب أن كان المسلمون أكثر علماً وحضارة من المسيحيين؛ بينما كان الغرب يرى صدى نور القمر في الله كان الأندلس واليهود يرون الله في الشمس يمطر مواهبه على الناس خلّاقاً كبيراً متعالياً. شهدت أسبانيا صراعاً وكفاحاً، كانت الأرض تفقد خصبها وأثمارها حيثما كان المسيحيون وعلى العكس تنبثق المياه وتتدفق الحياة وتجرى الأنهار ويخضرّ التراب وتزهوالزهور؛ حيث يوجد المسلمون. فعندما يتواصل الذات بالآخر فهوفي الحقيقة يطبق مستوى من مستويات اهوائه وعواطفه التي تدل على درجة استخدام المرسل ذكاءه العاطفي. إذ يؤكّد الذكاء العاطفي على ادارة المرسل والمرسل اليه خاصة عند القلق والازمة. الذكاء العاطفي نوع من معالجة المعلومات العاطفية التي تشمل التقويم السليم لعواطف الذات والآخر وتنظيمها والاعراب عنها في الملائمات المختلفة بحيث تؤدي إلى تحسين حركية الحياة.

يقول «جوله ميشله»: ازدهر الفكر ايضاً بهم، فكانوا يرغبون الفن والموسيقى والشعر ناظرين إلى الحياة نظرة احترام وحرية ومحبة، فعاملوا اليهود برفق وسمحوا لهم أن يواصلوا حياتهم في سلم وهدوء وأن يعملوا بقوانينهم الدينية، فما هوقيمتنا دونهم.١٦

وكانوا يقيمون مراكزهم الثقافية النشيطة، حيث بلغ كثير منهم درجات عالية في المناصب الحكومية السياسية، بينما كانوا، قبل دخول الإسلام الأندلس، فلاحين وتجاراً صغاراً، أشهرهم «حسداي بن شابروت» في القرن العاشر للميلاد(٩١٥-٩٧٠)، و«شموئيل نقيد» وابنه «يوسف» في القرن الحادي عشر. بعد أن توفي حسداي تقلد رئاسة اليهود يعقوب بن جائو(٩٩٠) ولكن شموئيل نقيد (اسماعيل بن نغريلة) يعتبر بعد حسداي أعظم قائد لليهود في الأندلس، كان من آل داود كما كان حسداي وزّر ابنه يوسف بعده، فبلغت في عهده الحروب بين الحكومات الاسلامية في غرناطة وأشبيلية إلى الذروة. أعرب المسلمون عن نفرتهم منه لطمعه في المال وإثارته الفتن والحروب، ومنهم ابواسحاق بن مسعود الأيبيري أنشد شعراً أدّى إلى قتله متهماً بقتل نائب الخليفة في غرناطة.

ولا أنسى أن أول مفكّر مسلم اهتم بالتركيب السياسي الداخلي لليهود وأدرك خطره هوابومحمد على بن أحمد سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤/٤٥٧هـ-١٠٦٤م)؛ إنه بدراسته العميقة في تاريخ التفكير الديني تعرّف على المجتمع اليهودي فبدأ بكتابة رسالة «الردّ على ابن النغريلة اليهودي١٧». المسيحيون ايضاً، كما أشرنا، كانت لهم قوانينهم وقضائهم ويقومون بآدابهم وسننهم الدينية، يتعبدون في كنائسهم وإذا لم توجد كنيسة في مكان، كانوا يبنون معبداً غربي كل مسجد لعبادتهم بينما كانوا يحتفظون بالقسم الشرقي١٨.

وأما التعايش الثقافي، فكانت له جوانب مختلفة: النهضة العلمية، والاحتكاك والعلاقة، التبادل والخلق، إعادة الإبداع مع حفظ السنن. وأما النهضة العلمية فكانت بنشر العلوم وتأسيس المعاهد والجامعات. والعلوم التي جاء المسلمون بها إلى الأندلس نوّرت ظلمات الأوروبيين العقلية. وكانت القراءة في فرنسا حتى سنة ٦٠٠ هـ تختص بالرهبان وروساء الكنائس. كان العلم قد انتهي تماماً وتبدّل بالسحر. هذا ويكتب «استانلي بل»: إن الأندلس كان مركز الحضارة والعلم والفن والفكر. وكانت قرطبة اكبر مركز ثقافي لأوروبا تشتمل على أعظم المكتبات والمساجد والبلاطات. بينما لم تحصل فرنسا وإنجلترا عليها إلا بعد قرون. بينما كانت جامعة آكسفورد تعتقد أن الاستحمام ميراث جاهلي وثني، كانت أجيال الأندلس تكثر من تشييد الحمامات العامة١٩، فلم يأت الإحساء وتجديد البناء من الشمال على بد القبائل المتوحشة، بل أتى من الجنوب على يد المسلمين المنتصرين الذين كانوا فاتحين ذوي حضارة وثقافة، قبل أن يكونوا مسيطرين على البلاد. وجرّاء ذ لك تسرّبت إلى البلاد ثقافية يانعة شابة ذكية كانت تتلألأ مع تقدم سريع في غرب ذلك الإقليم.

والحضارة التي بنيت على الحبّ للنبيّ«ص» تمكنت من جذب علوم الروم الشرقية وإهداء حضارة هند وايران وما أخذ عن الصين الساحرة.

قبل أن يفتح المسلمون الأندلس، لم تكن هناك مناظرات وآراء فلسفية، بينما انتشرت العلوم المختلفة باستقرار العرب في الأندلس، فلم تتح للفلسفة فرصة جديرة تتمكن بها من الظهور في ثوب جديد، بل انتشرت في هذه الأقاليم كما كانت في المشرق بازعة في منتصف القرن الثالث الهجري. لم يعتن بها لخمسين سنة فحسب، بل اتهم الفلاسفة بالزندقة. أما الحوادث والفتن في زمن ملوك قرطبة من مطاردة الفلاسفة وإصدار الحكم عليها، ما أدّى إلى أن تتمتع الفلسفة بالحرية والنشاط ويتمكن الناس عن طريق المكتبات العامرة من التعرف على المباحث الفلسفية وعلم الحساب والمنطق.٢٠

فاحتكّت المكتسبات الخارجية خاصة مستوردات الثقافة الشرقية الاسلامية بالإنتاجات الإقليمية احتكاكاً لم يكن له نظير من قبل. فوسع علماء اليهود الأندلسيين في احتكاكهم بأفكار المسلمين عوالمهم الأسطورية والفلسفية والصوفية والعلمية والأدبية، فأغنوا بذلك حضارة الأندلس، وتمكن كتّاب اليهود عن طريق العناصر الثقافية لعالمهم وعالم الإسلام، من المساهمة بشكل مقبول في الحياة الفكرية والثقافية؛ لأن هجرة اليهود بدأت إلى الأندلس مع ازدهار الحضارة الاسلامية في الجزيرة الإيبرية حتى دعا «رافائل باتاي» محرّر دائرة المعارف الصهيونية الإسرائيلية، هذه الحقبة بالعصر الذهبي وذروة ازدهار الثقافة اليهودية منذ خروج اليهود من فلسطين حتى ظهور الحضارة الجديدة في

الغرب.٢١ لذلك فتحت الأندلس الاسلامية طوراً جديداً في الثقافة اليهودية، فأخرجت اليهود من عالم التلمود الضيّق، إلى التفكير الفلسفي متأثرين في ذلك بالمسلمين واليونان.

هذا شيء عجيب جداً من حيث إنّ كثيراً من اليهود عقدوا علاقات بناءة بعالمي الروم واليونان. فهذا في مجال الفلسفة، كان أحد الطوابع المرموقة لذلك التعاون المشترك فدخل التفكير الفلسفي بموسى بن ميمون (ابن ميمون) (١١٣٥-١٢٠٤م) الفيلسوف المشائي إلى عالم اليهود.

فضلاً عن ذلك بلغ اليهود درجة عالية من الرفاهية والرقيّ الثقافي الذي سجّل به في المصادر التاريخية ألف شاعر عبري قاطن في الأندلس ذاع صيتهم في الآفاق، مثل: «ابراهيم بن عذراء»(١٠٩٢-١١٦٧) الشاعر والمتكلم الذي ألف ١٠٨ مجلداً من الكتب، كما بلغت (١١٨٠) كتابة تاريخ اليهود بإبراهيم ابن داود إلى الذروة و«موسى بن عذراء»(١٠٥٥-١١٣٥م) الذي كان شاعراً ناطقاً بالعبرية، كما برز «بنيامين تودلايي» (المنتصف الثاني من القرن ١٢) الشاعر والفيلسوف الذي اشتهر بكتابه «ذكريات السفر».٢٢

وأما سائر العلوم كقراءة القرآن الكريم وعلم الحديث، فكانت لهما مكانة سامية لكنّ علم الأصول (أصول الفقه) أصبح متوسط الحال. وعلم النحوكان في الذروة، فمن كان نحوياً لم يعتبر بالذات كبيراً، فحسب بل كان يتمتع بالهيبة. و«الهيوج النحوى» كان منافساً معارضاً لنحاة العرب. وأما الفقه وبخاصة الفقه المالكى الذي انتشر في الأندلس، فقد أصبح أداة عاملة لتنظيم علاقات التعايش بين الفرق الاجتماعية. أثرت تعاليم الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) -أحد كبار مفكّري الإسلام وأحد فقهائه، وتجاربه المعنوية- تأثيراً وافراً في تاريخ التفكير والثقافة في الشرق والغرب خاصة بين مثقفي اليهود. فدراسة سنن العرب واليهود المكتوبة والشفوية تدلّ على التأثر اليهودي بالمسلمين. كان التشابه بين التلموذ والمدارش (مجموعة من المواعظ والقصص) والأشعار الشعبية اليهودية بما يعادلها في العربية من الأدب الديني واضحاً جداً. نحصل من تعاليم محي الدين ابن عربي (١١٦٥-١٢٤١) الذي كان من وجوه التصوف المتلألأة، ومن عبارات المتصوفين الاندلسيين على نقاط مشتركة وأقطاب متشابهة تبلغ فيها تعاليم المسلمين المعنوية وتعاليم اليهود الباطنية إلى نقطة واحدة.

وأما الأدب بمعناه الخاص فيشار إلى انتشار الشعر انتشاراً واسعاً. كانت المرحلة الأولى مرحلة انتقال الأدب المشرقي إلى المغرب. حمل العرب إلى الأندلس طبيعتهم الشعرية كما حملوا نزعاتهم العرقية والاجتماعية، فتسربت الأغراض والأساليب الى الغرب دون تغيير وتبديل، ولكن زادوا على الرثاء لوناً سياسياً عندما رثوا الممالك الزائلة وأوغلوا في الوصف ايغالاً شديداً خاصة وصف الطبيعة وجمال الكون؛ جعلها الشاعر الأندلسي منبع تصويره وتزيين كلامه.٢٣ تناغم الشعراء في تلك البيئة مع طبيعة بلادهم مستلهمين فيها مصفين أذهانهم بها. وقد بلغ وجدانهم الذروة، مؤثراً في كلامهم تاثيراً عالياً، فسيطر عليه خيال رائع نشأ عن مظاهر الجمال الذي كان منتشراً في الجزيرة.٢٤

ففتح الشعر جناحيه أكثر من كل فنون الأدب، وساد جميع الصنوف، لكن التقليد الشعرى لم يواصل سيره بل قويت الذاتية الاندلسية في القرن الحادى عشر، وأخذ الاندلسيون يعرضون شيئاً فشيئاً عن المشارقة، فازدهرت حركة التصنيف فكان العقد «العقد الفريد» لابن عبد ربه و«الذخيرة» لابن حسّام و«قلائد العقيان» لابن خاقان و«التوابع والزوابع» لابن شهيد. فيبدومما مضى ان تاثير كل اسلوب من اساليب توجيه الفرد يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف والأحوال التي يقع فيها القائد اوالمدير.فكلما تناسبت اساليب الهداية والقيادة بالظروف تعتبر القيادة مؤثرة وإلّا كانت غير مؤثرة.

تدل تجربة الادارة والسيادة على انه لاتوجد لها احسن طريقة واسلوب لمعاملة الآخرين وادارتهم.بل تتاثر كيفية التاثير فيهم بمستوى استعدادهم وتاهبهم فسميت هذه بالقيادة او" السلطة الاقتضائية" التي نرى متحركاتها فيما تحدثنا عنه من الحكم الاسلامي:

١- سلوك محدِّد المهام٢٢ :

"يشرح فيه الوظائف والمهمات الفردية والاجتماعية وما على المتوقع منه من القيام بها وكيفية اجرائها كما يشمل التواصل غير المتبادل ،وتواضع القوانين وتقويمها" كما راينا آنفا ما قام به المسلمون من وضع القوانين

٢-سلوك تواصلي٢٣ :

يشمل التواصل المتبادل بين طرفي

الخطاب كما يشمل الدعم الاجتماعي-العاطفي وتوسيع دائرة البواعث والمشاركة الاجتماعية التي رأيناها في مشاركة جميع العوالم المسيحية واليهودية بما اجراها المسلمون من عملية استقرار الهدوء والامان.

٣- مستوى الاستعداد والتاهب٢٤ :

يشمل مدى بلوغ الفرد إلى الكمال المرجوّ كما يشمل مدى قدرة المتوقع منه ومدى تمكنه ورغبته في القيام الناجح بالمهمات بمثل ما رأيناه من احتكاك المكتسبات الخارجية خاصة مستوردات الثقافة الشرقية الاسلامية بالإنتاجات الإقليمية احتكاكاً ادى الى أن يوسّع علماء اليهود الأندلسيين عوالمهم الأسطورية والفلسفية والصوفية والعلمية والأدبية.

مكانة اللغة العربية وسواها

علاقة المسلمين المستمرة واحتكاكهم بالأسبان دفعهم إلى تعلّم لغة الرومان التي كانت مشتقة من اللاتينية والأيبرية. فكانوا يتحدثون بها في منازلهم خلال إقامتهم في الأندلس. فبرز بين المسلمين في الأسبان جمع غفير يجيدون اللغتين: العربية والرومية.

وقد أشاع الروم كما كما أشرنا سابقاً في أسبانيا ثلاث لغات: الكاتالونية، البرتغالية والأسبانية، كانت كلها في البداية لهجات لكنها على مرّ القرون هذّبت وكملت فأصبحت لغة بارزة. أصبحت لغة «كاتالان» رغم ماضيها المشرق وما كانت فيها للناس من الذكريات القومية، أصبحت عتيقة ثمينة. اللغة البرتغالية بقيت لهجة اقليمية بين أهل «جاليسا» في الجنوب الغربى وأما اللغة الأسبانية أي الكاستيلية فكانت لغة وطنية موزونة لطيفة الجرس والموسيقى، أغنتها اللغة العربية التي جاء بها المسلمون. وأخذت اللغة الأسبانية كثيراً من المفردات في اللغات الإيبرية. حتى إن «دروثى لودر» يعتقد أن المستعربين نسوا اللغة الرومية التي ورثوها عن الروم وتكلموا العربية، اللغة الوحيدة التي ينطق بها في ذلك الإقليم، فلزم أن يترجم الإنجيل بالعربية، بحيث إن القساوسة كانوا يقرأون الإنجيل بالعربية ويعظون الناس بها. ٢٥

وكان الشباب المسيحيون يقرأون الآثار الأدبية العربية ويكتبون بها. فكانت هذه اللغة من البداية لغة نقل الثقافة: استخدمها اليهود والمسيحيون في جميع نشاطاتهم الفكرية: كالعلم والدين والأدب الديني وغير الديني، والترجمة والنقل وتفسير التوراة والمشنا، ورسائلهم الدينية والفلسفية وشرح الآداب والسنن الدينية وقواعد اللغة والمعاجم والمكتبات. كما كان «سعد بن دنان» آخر شاعر يهودي في غرناطة ألف آثاره النحوية ورسائله باللغة العربية، على اسلوب «ابن ميمون» متأله قرطبة اليهودي وطبيبها الشهير (في القرن ١٢).

وكان يهود الأندلس يجيدون اللغة العربية ولغة الرومان، فضلاً عن العبرية التي كانت لغة دينهم وعلومهم، فتمكنوا أن يبنوا بنيان الدراسات المقارنة في اللغة بتضلّعهم في تلك اللغات الثلاث، ويلعبوا دور المترجمين بين المسلمين والمسيحيين، كان لـ«أبى عبدل» مالك غرناطة، مترجمان يهوديان: «اسحاق بردونيل» وصهره «يهودا».

وجدير بالذكر أن نشير إلى دور المسيحيين الثقافي في هذه الحقبة؛ بوصفهم الناطقين باللغات الثلاث ايضاً، فكانوا جسراً ثقافياً بين الثقافة الأوروبية والشرقية. لم يكن هؤلاء مترجمين فقط بل أصحاب معاجم مساهمين في نقل الثقافة الويزيجوتية. وكان «ايزيدورس» الأشبيلى آخر قديس غربى ألف كتاباً سماه «اتيمولوجيا» أو«الجذور» الذي كان كنزاً من الثقافة الدينية وغير الدينية آنذاك.

أما في مجال التبادل الثقافي، فقد لعبت الأندلس دور حلقة الوصل في نقل العلوم والفلسفة اليونانية إلى الغرب المسيحى، وفي دخول العلم وأساليب التفكير اليوناني إلى عالم اليهود بفضل الأدب العربي. فاجتمع الأدباء في «توليدو» (طليطلة) خلال القرن الثاني عشر اثر ما أمر به دون «ريموندو» الوزير الأعظم للعاهل الكاستيلي، من ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية في النجوم والطب والتاريخ والفلسفة، فنشر المترجمون آثار ارسطووجالينوس وبقراط التي شرحها ابن سينا وابن رشد في أنحاء أوروبا في القرون الوسطى.٢٦

وختم الزهد الاسلامي منذ البداية على جبين التصوف والأخلاق اليهودية، فتعلّم كثير من الزهاد اليهود ومتصوفيهم في مدرسة التصوف الاسلامي نوعاً من المعنوية التي سلّموها الى الثقافة اليهودية، فكانت هذه التعاليم في البداية عن طريق اللغة العربية ثم عن العبرية وسائر اللغات. فتبدل تمجمج العرفاء اليهود بفصاحة العرفاء المسلمين النشيطة المشوقة التي كانت أداتها اللغة العربية.

أمر (١٢٥١م) آلفونس الكاستيلي، ابن القديس فرديناند الثالث، بترجمة

كتاب كليلة ودمنة من العربية الى الكاستيلية. فأثرت هذه الترجمة تاثيراً هاماً في الأدب خاصة في كتب «رونار» الروائية وقصص «بوكاشى يو» وأساطير «لافونتين».

وقد جمع آلفونس العاشر الذي كان قد ذاع صيته في العالم وبلغ الى الحكم سنة (١٢٥٢م) الفقهاء والعلماء والشعراء والمؤرخين حوله فبادر الى نقل التراث الذي بقى، من الثقافة الإسلامية في البلاد، إلى اللغة الكاستيلية؛ الأمر الذي ساهم فيه المسلمون والمسيحيون واليهود الناطقون باللغة العربية.

كما أسس آلفونس في مدينة «مورسى» أول مدرسة كانت تنعقد فيها بحوث ومناظرات في الأديان الثلاثة: الإسلام، والنصرانية واليهودية. وكان الطلبة يحضرون ويتعلمون على الأديب العربي الشهير: محمد الريقوتي.

فتعرفت أوروبا ببركة هذه الترجمات على الفلاسفة وعلماء الحساب والنجوم والفلك والأطباء اليونانين من جانب، وعلى المفسرين ونظرائهم الناطقين باللغة العربية من جانب آخر. قال «هسلينر»: كان نقل هذه المعارف والعلوم إلى أوروبا الغربية نقطة عطف بناء في تاريخ الفكر الأوروبي. كما كتب أحد الأوروبيين: «يعجز القلم حقاً عن بيان مدى الآداب والسنن والعلوم والأصول الإنسانية والسعادة التي جاء بها المسلمون إلى الأندلس، التي كانت سبباً رئيساً لرقيّ العقل الأوروبي وتربيته. ولولم يدخل هولاء المسلمون أوروبا، لما كان معلوماً مدى تأخرنا وتخلفنا عن ما نحن عليه راهناً. تعلمنا العلوم المختلفة والإبداعات الجديدة في العلم والعمران والمدينة وعلم الإجتماع والسياسة وتأسيس المكتبات».٢٧

"من كان له ذكاء عاطفي عالى المستوى، يدير الحوادث، التي فيها ضغوط نفسية واعباء روحية، احسن من الاخرين.ولاييئس ابدا. بل يتمسك بردود ملائمة ومناسبة للوقائع المرّة والسلبية" ونحن نرى بوضوح آثار استخدام هذا الذكاء بمهاراته وابعاده في هذا التعايش السلمي الذي لا مثيل له في التاريخ، الذي لم يغن شبه الجزيرة الإيبرية فحسب، بل أوروبا والبلاد الغربية بشكل عام. فلعب الأندلس دور حلقة الوصل، فربط القرون الأولى بالوسطى وأصبح ملتقى الشرق والغرب وجسراً ثقافياً حقيقياً بينهما، وما زال ولا يزال يطنّ في آذان الأعصار والقرون حتى يتمكن محبّوالسلم أن يستلهموا منه ويتقدموا نحوتوحيد القلوب.

نتائج البحث:

إن المعلومات الواردة تدل:

× على قدرة المسلمين على ادراك الذات:ادراك الأحوال وما له الاولوية والاهمية والتعرف على القدرات والاحاسيس.

× على ثقة المسلمين بالنفس.كما لاحظنا قوة شعوره واحساسه بالقيم الانسانية وكراماتها.

× على ادارة المسلمين ذواتهم:كما رأينا ادارته لاحواله الذاتية ولبواعثه ومثيراته ولقدراته ولاهوائه وعواطفه.

× على تنظيم المسلمين لذاتهم:للحيلولة دون المثيرات المضرة التي كادت تطغى عليهم منذ البداية

× على قدرة الانطباق والانعطاف بظروف صعبة شتّى وحلّ العقد منه

× على الابتكار والقدرة على تقديم المعلومات الجديدة والاراء البناءة الحاسمة للدخول الى دين الله افواجا بما عاملوهم في مثل اراضيهم وممتلكاته.

× على التفاءل لاننا نرى المسلمين يلحّون على الاستمرار في العمران وتوسيع دائرة التطورات الاجتمائية والثقافية للبلوغ إلى الاهداف على الرغم من الموانع والحواجز

× لعب الأندلس دور حلقة الوصل، فربط القرون الأولى بالوسطى وأصبح ملتقى الشرق والغرب وجسراً ثقافياً حقيقياً بينهما.

پی نوشت:

١. cartage

٢. دروثی، لودر، (Dorothy Loader)؛ سرزمین ومردم اسپانیا، شمس الملوك مصاحب، ص٣٣.

٣. Roderick

٤. مونتکو، مری وات؛ اسپانیای اسلامی، محمد علی طالقانی، ص١.

٥. حسنی، علی اکبر، تاریخ تحلیلی وسیاسی اسلام، ص ٣٣٥.

٦. المقری، نفح الطیب، ج١، ص٢، سیدامیر، علی، مختصر تأریخ العرب، ص٣٩١.

٧.سید امیر علی، المصدر نفسه، ص٣٩٣.

٨. المقری، المصدر نفسه، ص٣٩٤.

٩.کوستاو، لوبون (Lebon Gusravo)؛ تمدن اسلام وغرب، ص ٢٣١و٢٣٢.

١٠. کوستاو، لوبون، المصدر نفسه، ص٣٤٢.

١١. بی ناس، جان، تأریخ جامع أدیان، علی اصغر حکمت، ص٥٦٥و٥٦٦.

١٢. دروثی، لودر، المصدر السابق، ص٤٣.

١٣.کلاپرمن، زیلبرت ولیبی؛ تاریخ قوم بهود؛ مسعود همتی، ج٣، ص١٥.

١٤. شهبازی، عبدالله؛ زرسالاران یهودی وپارسی واستعمار بریتانیا، ج، ص.

١٥. دروثی، لودر، المصدر السابق، ص٤٤.

١٦. آل علی، نورالدین؛ اسلام در غرب، ص١٦٠ – فیبیپ حتی، تاریخ عرب، ص٧٥١و٧٥٢.

١٧. الخفاجی، محمد عبدالمنعم؛ الأدب الأندلسی، ص٢٠٧.

١٨. شهبازی، عبدالله؛ المصدر السابق.

١٩.شهبازی، عبدالله؛ المصدر السابق.

٢٠. الفاخوری، حنا؛ الجامع فی تأریخ الأدب العربی؛ ج١، ص٩٤٢.

٢١. الخفاجی، محمد عبدالمنعم؛ المصدر نفسه، ص٣١٠.

٢٢. task-oriented behavior

٢٣. relationship-oriented behavior

٢٤. readiness

٢٥. دروثی، لودر، المصدر السابق، ص٤٤و٤٥.

٢٦. کوستاو، لوبون؛ المصدر السابق، ص٧٣٢.

٢٧.تاریخ فتوحات اسلامی در اروپا.